مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

من ومضات الحس اللغوى عند العرب
فى آفاق العبارة والأسلوب

للأستاذ الدكتور
عبدالحكم صالح سلامة
أستاذ أصول اللغة المساعد
ورئيس قسم أصول اللغة فى الكلية
جامعة الأزهر

١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الثاني)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى

وبعد

فمن الثوابت التى لايتسلل إليها ظل من ريب، أن العناية باللغة العربية باب واسع من أبواب الزلفى إلى الله ـ سبحانه ـ ومحراب قدسى يتبتل فيه أولو الاعتصام بالذكر الحكيم؛ لأن هذه اللغة هى ـ دون تعصب ـ الأداة الفعالة فى اكتناه أسرار هذا الكتاب المعجز، واستشفاف إعجازه الرفيع، وتذوق نظمه البديع، واستنباط أحكام الإسلام وتشريعاته التى تضع للبشرية المعالم والصوى على الطريق.

وإذا كانت اللغة تتشكل من العديد من النظم اللغوية، فإن ميادين البحث فيها تتعدد وتتسع وتتنوع، بحسب تعدد هذه النظم اللغوية.

وقد بذل علماء العربية ـ على امتداد الزمان ـ جهودا مشكورة ومأجورة فى خدمة هذه اللغة، وتفتقت أكمام عقلياتهم عن لآلئ الفكر، التى ضوأت آفاقنا العلمية، ولاتزال.

والذى يتأمل المكتبة اللغوية التى تتمتع بها لغتنا العربية، يستشعر ـ بجلاء ـ أن هذه اللغة قد نالت من الرعاية والعناية من عشاقها وشداة المعرفة بها ما لم تنله لغة سواها ـ على امتداد التاريخ ـ

فى كل فن منجزات تفوق الحصر، وفى كل جانب من جوانب

اللغـة مؤلفـات يذهل من عددها وعـمقـها الخـيال، بصـورة استلفـتت وتستلفت أنظار الباحـثين وتستثير الزهو والإعجـاب بهذا التراث اللغوى العظيم.

ويأتى فى موقع الصدارة والمحورية، فى مـيدان الدراسات اللغوية، ذلك السفر النفيس: «الخـصائص» لفيلسوف اللغة وعبـقرى العربية (أبى الفـتح عثـمان بن جنى) ـ عليـه رحمـة الله ـ وهذه من المسلمـات التى لاتقبل الجدل فى وسطنا اللغوى.

فهذا الكتـاب ومايشاكله فى محوريتـه مثل (كتاب سيـبويه) وكتب الإمام عبدالقاهر الجرجانى، تعد ـ دون مبالغة ـ قلائد نفيسة فى منظمونة منجزاتنا اللغوية.

ولعلنا لانركب شططا إذا قلنا إن هذا الكتاب ومـايشاكله فى حاجة ماسة إلى دراسات تستظهر عرائس العمق والعبقرية، التى تفيض بها تلك المنجزات القيـمة وتجلى مافيها من لمحـات بارعة وومضان مضيـئة لشداة المعرفة، ونشـدة التضلع فى علوم لغة القرآن الكـريم، وصولا إلى مزيد من الترقى فى مستوى الدرس اللغوى، ومواكـبة لشتى مستويات النهضة فى جميع جوانب المعرفة والفكر، تلك النهـضة الشاملة التى غدت سمة هذا العـصر، وأبرز ملامـحه، والتى بات فـرضا علينـا أن نواكبهـا بكل طاقاتنا فى جميع الميادين.

إنه ليس من البـر بالتـراث أن نقف عند اعـتزاز به أجـوف، أوعند مسـتوى من الزهو به أيا كـان هذا الزهو، وإنما البـر بالتراث يتمـثل فى الاقتراب منه ومـعانقته، والانفعال به، بعـد التفاعل معه بقراءة مـستأنية واعية حصيفة تجيد لغة الحوار معه، وتمهر فى تحصيله واستيلاد الجديد من

خلال ذخائره ومطالعة الوسط العلمى بعطاء فـذ، ثرى، مسترفد من هذا التراث، وفـهوم بكر نواضج، أينعت وأثمرت مـن خلاله، وتشكلت فى رحمه العبقرى الخصيب.

إنه إذا كان القرآن الكريم ـ وهو كـلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلـفه ـ يعـد فى نظر المسـتنيـرين من العلمـاء ورمـوز الفكر، نصا مفتوحًا لايقبل الإغلاق على تفسير أوحد، فإن من البدهيات ـ آنئذ ـ أن ننطـلق بدعوة صادقـة (جريئة) مـخلصة، إلى ضـرورة قراءات جديدة ومتعددة لمنجزاتنا التراثية فى جميع جوانب الفكر وميادين المعرفة، تساميا بالتراث عن (متحفية) مقيتة تعزله عن العصر.

ومع كامل احترامنا لكل الفهـوم التى تم طرحها من خلال التراث، فإننا نؤكد على ضرورة تتابع القراءات له، ومطالعة الوسط العلمى بفهوم جـديدة نضـجت من قـراءات جـديـدة لهـذا التـراث؛ ذلك لأن الرؤى الإبداعية الفردية المتفردة، تختنـق وتموت فى مناخ فكرى جامد متحجر، مهمين، مركز فى اتجاه أوحد، لايقبل التعدد.

والتـمسك بأوحـدية مـا فى فقـه التـراث قتل للـملكات مقـيت، لايعكس إلا نغمـة مستـهلكة الإيقاع، تجهض التـنوع فى الرؤى، وتثبط المبادرات الإبداعية فى الفكر والثقافة.

وما من شك فى أنه لكى تتسم رؤانا العلميـة بالاستنارة والعصرية، فلابد من أن ندأب فى التـسامى بالفكر والوعى إلى مستـوى التفاعل مع المتغيرات الجديدة والتكيف معها، دون أن يكون ضد الهوية، أو متشاكسا مع الحفاظ على التراث.

ومن قنوات ذلك، السعى إلى الجديد، من خلال المأثور، وعبر التراث النقى، الدقيق، الواعى، المنطقى، المتمتع بالمعقولية، وهذا كله ليس إلا حفاظا يقظا واعيا على التراث، وحرصا على نفاسته وذخائره القيمة من جمود مقيت، ومن انغلاق أصم، ومن تشرنق مستبد، يجنى على التراث كثيرا، ولايجنى منه شيئا.

أقول ذلك تجسيداً لرؤية شخصية تجاه التراث، عاشت طويلا غمغمات فى النفس، ووميضات فى الفكر، حتى نضجت وبلغت إناها، ثم صارت عقيدة علمية عندى لامعدل عنها، ولامحيص، إن كنا أوفياء لأمتنا، بررة بتراثها النفيس.

وانطلاقا من هذه العقيدة العلمية، كانت فكرة هذا البحث الذى يعد باكورة التعامل المباشر مع التراث فى صورة استنطاق له جديد، واكتناه لألوان عبرقياته العديدة، التى تزداد ألقا والتماعا مع طويل المعايشة لهذا التراث الذى تجلى مافيه من ذخائر ونفائس من خلال بحوث جادة مخلصة لعلمائنا المخلصين، كتلك التى أنجزها أستاذنا الدكتور عبدالغفار هلال فى رسالته القيمة (ابن جنى اللغوى) وغير ذلك من بحوث قيمة تزخر بها المكتبة اللغوية، وتعد معالم هادية على الطريق للشداة والباحثين.

وبذلك صارت الفكرة حديثًا نفسيا دائم المداعبة لنفسى، متواصل الإلحاح عليها حتى فرضت نفسها موضوعًا تنهض بطرحه هذه الورقات.

وإنى لأرجو الله ـ تبارك اسمه ـ أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن ينبته نباتا حسنا، إنه ولى ذلك والقادر عليه، وهو ـ تعالى ـ نعم المولى ونعم النصير،

فى آفاق الحس اللغوى عند العرب

الحس العام:

يقتضينا الالتزام بقواعد المنهج العلمى أن نبدأ بتجلية المراد من (الحس) ثم عن طريق ذلك يمكننا التوصل إلى صياغة مفهوم مصطلحى سديد لما نتغياه من مصطلح (الحس اللغوى)، وذلك كيما يكون انطلاقنا فى البحث انطلاقا علميا غير (هلامى) ولا هائم ولاشرود.

وفى بحث لنا سابق بهذا العدد من هذه المجلة الغراء، التى هى الترجمان العلمى لهذه الكلية العتيدة الفتية، توصلنا إلى العديد من المفاهيم والتعريفات للحس، من خلال رؤى علمائنا من الأقدمين والمحدثين، وهذا البحث بهذا العدد من المجلة بعنوان (السليقة والحس، دراسة لغوية تأصيلية).

وحين نورد هنا تعريفا من هذه التعريفات، فإنه يعد التعريف الذى يتبوأ موقعية الرضا والتشبث به أكثر من غيره، وهى كلها ـ دونما شك فى موقع الرضا ـ والحمد لله ـ

والتعريف الذى نومئ إليه هو:

(الحس : هو الاستشعار الوجدانى للشىء غير الحسى، استشعارا واثقا مؤكدا يشاكل العلم العقلى بالشىء الحسى المتحصل فى العقل عن طريق الحواس الخمس الظاهرة)

فآلة هذا الحس آلة باطنة، وليست ضمن الحواس الخمس الظاهرة، والمستشعر بهذه الآلة قاصر على الأمور المعنوية ولا علاقة له بعالم المحسوسات قط.

مفهوم الحس اللغوى:

وهذا التعريف تعـريف عام يشمل جميع مـايستشعره الإنسـان بغير الحواس الظاهرة بل بقـواه الباطنية، أو بالأحرى بوجـدانه، فبه نستـشعر القيم الجـمالية فى أى شىء وبه نـستسـيغ الشىء المستسـاغ، ونرفض ما لانراه سائغا.

ومن الأمور التى تسـتشعر عن طريق الحس عـرائس الجمال وقيـمه وملامـحه فى النظم القرآنى، وبلاغـة المصطفى فى جوامع كلمه المشـرقة الغراء، ومـلامح الوسامة والرشـاقة الفنية فـى أدبنا العربى الرفيع شـعرا ونثرا.

ومما يستشعره الحس كذلك ألوان الحكمـة فى لغتنا العربية، وملامح العبقرية فيها وأسرار توازنها، ودقتـها، وفلسفة هذه اللغة الفائقة والأنيقة فى نسيج جذورها والموقعيات بين صوامت الجذر، أى الأصوات يتجاور، وأيها يمتنع تجاوره أو يعسر، وعبقريتها فى التسشكيل المقطعى، وحكمتها فى اصطفاء قوالبها التى تسمح العربية (بتـقولب) الأصوات فيها لتتشكل بذلك كلمات، وكذلك حكمة العربية فى إهمال ما أهمل، وحكمتها فى المواءمة بين الصوامت التى تتشكل منها الكلمات ومعانى هاتيك الكلمات إن فى الكيـفـيـات، وإن فى حـجم المعنى و (كـمـه)، وإن فى التناسق المرحلى بين أصوات الكلمة ومعناها ـ على ماذكره (ابن جنى) فى (بحث ـ شدَّ ـ جر)[1]. وغير ذلك مما يتصل بالنظام الصوتى للغة.

ومما يستـشعره الحس كـذلك حكمة العـربية فى أبنيتـها وذلك باب عظيم واسع يتناول أبنية الأسمـاء والأفعال والجموع والمشتقات والتـصغير

وطرق النسب وغير ذلك مما نجد تحليلات لغوية بارعة له فى منجز أستاذنا الدكتور عبدالغفار هلال: (أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى).

وما قلناه عن النظامين الصوتى والصرفى نجد أضعافه فى نظام اللغة النحوى الذى يحكم العلاقات بين المفردات فى التـشكيل التركيبى للغة ـ على اتساع ميادينه وانديا‌حها ـ

وينفسح الميدان أكثر على المستوى الدلالى، وما يتصل به من قواعد ومعايير هى الحكمة عينها ـ بعيدا عن أى نزعة تعصب ـ ثم على مستوى التشكيل الأسلوبى ومافيه من حكمة.

وبإيجاز فإن الحس اللغـوى حين يتم توظيفه فى استشـعار جوانب العبقـرية فى لسان القرآن توظيـفا راشدا واعيا، فـإنه لايشبع من ترشف رحائق الحسن والجمال فى هذه اللغة العبقرية الشاعرة الساحرة، التى يعد الحس أساس بنائها، و(أكسير) الحياة فى شرايينها.

على أن الحس عـموما ليس أداة استـشـعار لما تفيض به هـذه اللغة الشاعرة العروب فحسب، بل به يتم اسـتشعار قيم الجمال فى كل شىء، فى وجه الطفل البرىء، وفى صـفحات الطبيعة الخلابة ولوحـاتها الربانية القاهرة، وفى كل مامن شـأنه أن يداعب الوجدانات اللطيفة الشفـيفة من سحر خلاب أخـاذ، ويوقظ المشاعر الوسنانة الغافية مـن ملامح الوسامة والوجاهـة والألق، فى أى إطار من الأطر العديدة المتنوعـة التى تملأ هذا الكون.

إننا نستقبل جمال الجميـل بأعيننا لكننا نعجب به ونتعشقه بالحس، وبالحس وحده، كما أننـا نستقبل الإيقاعات الحلوة والموسـيقى الساحرة،

والاصوات الجميلة العذاب بأذاننا، لكننا نترشف كئوس الجمال من كل ذلك بالحس، وبالحس فقط.

وبالمستوى نفسه، نحن نتأمل الحكمة فى إبداع العلى الأعلى على مستوى الكون بحواسنا الظاهرة، لكننا نهتف (سبحان الله) انبعاثا من فيض امتلاء الحس بحكمة الله وقدرته.

وكذلك نحن نتأمل حكمة الله فى إعجاز القرآن الكريم من خلال قناعات ذهنية بدقة النظم وإبداعه، لكننا نترشف جماليات الإعجاز القرآنى القاهر بالحس وحده.

والحس أخيرا، فارق فيصل بين هذا الإنسان وبين غيره من الأنواع التى يضمها جنس الحيوان، وكفى الحس بذلك فضلا وشرفا.

وعدًّ عن ذا إلى محاولة لتعريف الحس اللغوى فهو أساس همنا فى هذه الدراسة، إذ هو نقطة الانطلاق والتحليق فى آفاق الموضوع.

من منطلق صحبة واعية صبور - بتوفيق الله - لعبقرى اللغة وفيلسوف العربية (ابن جنى)، التقطت مجموعة شذرات من مواضع عديدة كانت تشرق من آفاق هذا العالم، وهى حين ينتظمها خيط واحد يمكن أن يطالعنا منها ما يمكن أن يكون تعريفا للحس اللغوى، وذلك على النحو التالى:

هو «فقاهة النفس، ونصاعة الفكر، ولطف الاستشفاف الذى جعل العرب يلاحظون بالمنة والطباع، ما لانلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع، كما منحهم القدرة على إنعام النظر فى الأصوات والحروف التوام والكلمات، والقدرة على تأمل مواقع الكلام وإعطائه فى كل

موضع حقه عن ميزة وعلى بصيرة فى التماس للخفة وتسام عن الثقل من خلال التساند إلى السليقة والنجار».

وليس من العلمى الزعم بأن مدلول (فقاهة النفس، ونصاعة الفكر، ولطف الاستشـفاف) وما إلى ذلك مدلول عام غـير منضبط، فلكل لفظ دلالته فـى المعجم، وهذه تراكـيب (ابن جنى) وهو فيـها مـصيب غـير مخطئ وله من العلاقة الوثقى بالعربية والتـعشق لها ما يجعلها تسرى فى خلاياه، ويمنحه القدرة على استشعار نبضاتها ووسوستها الحلوة الشاعرة بما يعطى سلافه هذا كل الحجية فى الميدان الذى تنشط فيه هذه الورقات، تجسيدا لهذه الدراسة.

من ركائز هذا التعريف عند (ابن جنى)

من الإنصاف أن نـقول: إن عالما مـثل (ابن جنى) ليس من الكثـير عليه أنه ـ وهو من هو ـ يحتاج إلى مـتابعين موهوبين أولى حس لطيف شفيف يتسمع كل منهم نبضات كلماته، ويطيل الإصغاء إليها فى صوفية واعية شـغوف بهذه اللغة العـبقرية التى هى الأداة الصناع لفقـه الإعجاز القرآنى البديع، والبـيان النبوى الرفيع، وتذوق عـرائس الجمال فى تراثنا الأدبى الثرى المعطاء.

وينبغى أن نبنى على مـا أسس هؤلاء العلماء الأفذاذ، وذلك بفـقه الأسرار التى كشفوا عنها واستثمارها الاسـتثمار العلمى الرشيد، لتتحقق من ذلك على اللغة مردودات إيجابية لا مثيل لها.

وإذا كان هم هذا البحث هو الحس اللغوى عند هؤلاء العرب فهذه

بعض النصوص التى تمثل الشذرات التى تشكل منـها ذلك التعريف الذى أوردناه.

نقرأ فى (الخصائص) عن استشـعار العربى بحسه همس الحرف من جـهـره قـوله: «إلا أنه ـ أى العـربى ـ وإن لم يحـسن شـيـئـا من هذه الأوصاف صنعة ولا علما، فإنه يجدها طبعا ووهما»(٢).

كمـا نجده يـقول: «وإنما مكنت القـول فى هذا الموضع ليقـوى فى نفـسك حس هـؤلاء القـوم، وأنهم قـد يلاحظون بالمـنة والطبـاع، مـا لانلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع»(٣).

وكذلك نجـده يفصح عن أن العلل التى يوردها العلمـاء فى قوانين هذه اللغة مـواطئة للطبـاع، يقول: «ولست تجد شـيئا ممـا علل به القوم وجوه الإعـراب إلا والنفس تقـبله والحس منطو على الاعتـراف به؛ ألا ترى أن عوارض هذه اللغة شىء سبق وقت الشرع، وفزع فى التحاكم فيه إلى بديهة الطبع، فجميع علل النحو إذا مواطئة للطباع(٤)».

ويمضى (ابن جنى) مبينا أن تحكيـم بديهة العقل، والترافع بظواهر اللغـة إلى الطبيعـة والحس يعطى تحليـلات العلماء وتعليـلاتهم حقـها، ويقدرها قـدرها وها هو ذا يقول: «وإذا حكمنا بديهـية العـقل، وترافعنا إلى الطبيعة والحس، فقد وفينا الصنعة حـقها، وربأنا بها أفرع مشارفها، وقد قـال سيـبويه: ولـيس شىء مما يضطون إليه، إلا وهم يحـاولون به وجها، وهذا أصـل يدعو إلى البحث عن علل ما اسـتكرهوا عليه، نعم ويأخذ بيدك إلى ما وراء ذلك فـتستضىء به وتستمـد التنبه على الأسباب المطلوبات منه»(٥).

الحس اللغـوى فطرى فى العـرب، يغـذوه إبداع الملكات اللسـانيـة صقلا وإرهافا ولطفا:

وهذا الحس اللغـوى ـ بالمفهـوم الذى وضـحناه ـ إنما هو فطرة فطر الله عليها العرب، ثم يتم صقله وإرهافه من خلال استرفاد واعية العربى لإبداعات الملكات اللسانية من بديع القول ورفيع الكلام.

ولكى نتعرف على كيفـية تكون الملكة، فإننا نجد (ابن خلدون) يرى أنها تتكون بسماع اللغة الصحيحة، شريطة أن يتكرر هذا السماع(٦).

يقول (ابن خلدون): «فالمتكلم من العـرب حين كانت ملكة اللغة العربية مـوجودة فيهم يسمع كـلام أهل جيله وأساليبهم فى مـخاطباتهم وكيفية تعـبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبى اسـتعمال المفردات فى معانيـها فيلقنها أولا ثم يسـمع التراكيب بعدها فيلقـنها كذلك ثم لايزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخـة ويكون كأحدهم، هكذا تصير الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمـها العجم والأطفال، وهذا هو معنى ماتقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع، أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم»(٧).

فالملكة اللسانية إذا تتشكل بالسماع المتكرر لـلغة الصحيحة العالية، فالسمع أبو الملكات اللسانية كـما يقول (ابن خلدون) (٨). وهذا بالنسبة لمن شـهد عـصور الازدهار فى الأداء اللغـوى، حـين كانت ملكة اللغـة العربية موجودة ـ على حد تعبيره. (٧)

والمتأمل لكلام (ابن خلدون) قد يفهم أنه يرى أن الملكة اللسانية تعلم واكتساب فقط،، فهو يقول: (فالسمع أبو الملكات)، وأنه لاقيمة للنحيزة والطبع، ولكن حين نستتم فهم (ابن خلدون) نجده يؤكد على قيمة الطبع ودوره فى تشكل الملكة؛ فهى تنبثق من الطبع ويتم صقلها تعلما واكتسابا وسمعا.

يقول : «ويحتاج ـ مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم فى التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والذوق يشهد بذلك، وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر، وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المسموع نظما ونثرا»(٩)

أما غير أولئك الذين عاشوا فى بيئة لغوية مستواها التلاسنى على هذه الدرجة من العلو والرفعة والصواب اللغوى، وهم الذين انحط مستوى الأداء اللغوى فى بيئتهم، وفسدت الألسنة التى تلهج حول آذانهم، فهؤلاء تتكون الملكة عندهم من خلال الحفظ الواعى البصير لبديع البيان ورفيع الكلام وفى قمة ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم عالى كلام العرب شعرا ونثرا، ومن قبل ذلك كله التمتع بالطبع السليم.

وفى هؤلاء يقول (ابن خلدون): «اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التى نزل بها القرآن وإنما هى لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما

قدمناه، إلا أن اللغـات لما كانت ملكات ـ كمـا مر ـ كان تعلمـها ممكنا، شأن سائر الملكات، ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نـفسه بحـفظ كلامـهم القديم الجـارى على أسالـيبهم مـن القرآن والحـديث وكلام السـلف ومخـاطبـات فحـول العـرب فى أسـجاعـهم وأشعـارهم وكلمات المـولدين أيضا فى سـائر فنونهم حتى يتنزل لـكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منـزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم، وماوعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهـذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهـما رسوخا وقوة» (١١).

ويؤكـد على ضرورة النحـيزة والـطبع فى هؤلاء كذلك فـيقـول: «ويحـتـاج مع ذلك إلى سـلامة الطبـع والتفـهم الحـسن لمنازع العـرب وأساليبهم فى التـراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقـتضيات الأحوال، والذوق يشهد بذلك، وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها»(١٠).

وهو يعنى بكلمة (الذوق) مانعنيه نحن من مصطلح (الحس)، ومن ثم فهو إذ يقـول: (والذوق ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فـيها) إنما يقرر أن الحس أصله نحيزة وطبع، ثم هو يتنامى ويقوى من خلال الملكة اللسانية التى تصقله وترهفة ـ مع الأيام ـ

ويلح العلامة (ابن خلدون) فى سبـيل ذلك، حيث نجده يقول عن حصول ملكـة اللسان العربى لمن لم يدركوا البـيئة اللغوية النقـية من آفة

اللحن والتلوث اللغـوى: «إنما هو بكثرة الحـفظ من كلام العـرب، حتى يرتسم فى خيـاله (أى فى خيال الحافظ لذلك) المنوال الذى نسـجوا عليه تراكـيبـهم فينسج هـو عليه ويتنزل بذلك منـزلة من نشأ مـعهم وخـالط عبـاراتهم فى كلامـهم حتى حـصلت له الملكة المستـقرة فى العـبارة عن المقاصد على نحو كلامهم(١١).

ثم يزيد الفكرة تقريرا فـيقول: «فالمتكلم بلسان العـرب والبليغ فيه يتحـرى الهيئة المفـيدة لذلك على أساليب العـرب وأنحاء مخـاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لايكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب»(١٢).

ومن ثم يتكون (الحس اللغوى) الذى من همنا الآن أن نبـين منبعثه وكيفية تكونه وتشكله.

وقـد أشـار (ابن خلدون) إلى ذلك (الحس اللغـوى) لكنه سـمـاه (الذوق) وبين أن من يتمتع به يرفض ماينبو عن سنن العرب فى كلامها، وذلك إذ يقول:

«وإن سمع تركـيبا جـار على ذلك المنحى (أى حاد ومال عن هيـئة أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم) مـجه، ونباعنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما اسـتفاده(١٣) من حصول هذه الملكة، فإن الملكات إذا اسـتقـرت ورسخت فى مـحالهـا ظهرت كـأنهـا طبيـعة وجـبلة لذلك المحل»(١٤).

فالحس اللغـوى، كمـا يعبر عنه (ابن جنـى) أو (الذوق) على حد تعـبيـر (ابن خلدون) إنما هـو ثمرة، من ثمـرات تكون الملكة وصـقلهـا ورسوخهـا فى الإنسان حتى لكأنهـا جبلة فيه، وكـأنها خط من الخطوط التى ترسم الشخـصية اللغوية، أو كـأنها نمط خاص قد طبع عليـه لسانه إبداعًا، ووجدانه استشعارا للكلام واستحسانا أو رفضا.

يقول (ابن خلدون): «واسـتعير لهـذه الملكة عندما ترسخ وتستـقر اسم (الذوق) الذى اصطـلح عليـه أهل صناعـة الـبيـان، وإنما هو (أى الذوق) موضوع لإدراك الطعوم (الكلام هـنا عن ذوق المحسوسات) لكن لما كـان محل هذه الملكة فى اللسـان من حـيث النطق بالكلام، كمـا هو محل لإدراك الطعوم، استعير لها (أى للملكة التى هى أم الحس اللغوى) اسمـه (أى الذوق الذى هو الحس اللغوى) وأيضا فـهو (أى الذوق الذى هو الحس اللغوى) وجدانى اللسان، كما أن الطعـوم محسوسة؛ فقيل له ذوق»(١٥).

ولعل من الوضـوح بمكان أن (ابن خلدون) قد أصـاب المحز بدقـة وفطنة ولماحية، فى هذا النص.

فهـو قد بين أن الذوق الحقـيقى الحسى هو إدراك طعـوم المأكولات والمشروبات باللسان، أما تذوق الكلام فقد اعتبره الجانب الوجدانى للسان وهو (الحس).

ثم ألمح إلى سر تسمية ذوق الكلام واستساغة رفيعه وجميله وبديعه واستـسماج جائره عن هـيئة أساليب العـرب ومنحرفه وزائغـه عن أنحاء

مخـاطباتهـا ـ أقول إنه قـد ألمح إلى سر تسـمية ذلك ذوقـا؛ لأن الكلام والنطق قـسيم تـناول المطعومـات والمشـروبات فى اللسـان، فمـصطلح (الذوق) فى الطعوم حقـيقى، وهو فى استشعـار نبضات الكلم وترشف عذبه ومج سمجه مجازى.

و(ابن خلدون) فى هذا على بصيرة وذو زكانة ولماحية.

وقد قـال بجانيـين للذوق ـ وإن كـان لم يتطرق إلى تذوق الكلم ـ العلامة الجرجانى فى سفره القيم (الـتعريفات)، فذكر أن منه ماهو حسى وهو «قوة منبثـة فى العصب المفروش على جرم اللسـان تدرك به الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية فى الفم بالمطعوم ووصولها إلى العصب»(١٦).

ومنه ماهو وجـدانى وهو «الذوق فى معرفة الله (وهو) عـبارة عن نور عرفـانى يقذفه الحق بتـجليه فى قلوب أوليائه، يفـرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره»(١٦). إنه ذوق مجازى يميز بين الحق والباطل، ومن ثم، فهو استـشعار إيمانى تفيضه قدرة الله فى قلب من يشاء دون تعلم أو اكتساب.

الحس اللغوى لدى العرب وليد الفطرة رضيع إبداعات السليقة:

بات مؤكدا لدى من يتمتع بالموضوعية، من خلال التتبع والاستقراء أن العـرب ـ فى عصـور الازدهار والصـواب اللغـوى ـ كانـوا يبدعـون كلامهم بالسليـقة التى فطروا عليها منذ نشـأتهم فى بيئة فصيـحة اللسان سليمـة البيان، حتـى إنه قد أصبح اللسن لديهم من الملكات الراسـخة، وقد انطبع حسهم عليه بصورة تدعو إلى الإعجاب من فرط حساسية هذا

الحس اللغوى الذى جعل العربى منهم حين يقرع سمعه مايشاكس طبيعة الصواب اللغـوى، كأنه قد لدغتـه أفعى، أو كأنما رضخ بحجـر، بحيث تجد أن كل خلاف فى النطق عن مقتضيات سليقتهم ينبو عنه حس العربى ويرفضه بكلتا يديه. (١٧)

فـالصواب اللغـوى كـان طبعـا فـيهم فطرتهم علـيه حكمـة الله، وصاغـتهم وفق أنساقـه ومعالمه وضوابطه، قـدرته ـ سبحـانه وتعالى ـ، وكان ذلك تدبيرا إليهـا حكيما، وتهيئة لهذه البيـئة اللغوية، التى سينزل أجمـع الكتب لدين الحق ـ سبـحانه ـ بلغـتهـا الحكيمـة المبيـنة معـجزاً لأصحابها، وفرسان الكلام فيها، بالفعل، ثم معجزا لكل ذى لسان ينطق أو من شأنه النطق، بالقوة.

والصواب الـلغوى ـ على مـستوى جـميع النظم الـلغوية، صـوتيا وصرفيا ونحويا وأسلوبيا و دلاليا ـ هو فى كل أولئك، قد نشأ فنا قبل أن يكون علما، فالواقع يشهـد بأن هذه الطرق وتلك الأنماط الخاصة بالأداء اللغـوى قد تم الـتزامـهـا بصورة اطرادية فى نـطق الأصوات، وأنسـاق الأبنية، وصور التراكيب، وألوان الأساليب لتـعطى الثمرات قيما دلالية، وكان ذلك طبعـا فطرت عليه العرب من قديم جدا ومـرنت على التزامه ألسنتهم، من قبل أن تلتف أنامل أى عالم لغـوى حول يراع ليخط كلمة واحدة فى العلوم الضوابط لهذه اللغة.

على هذه الوتيرة مـضت سليقة العربى، وفى هذه الأجـواء اللغوية النقية تم تشكل الملكة اللسانية للعربى، ثم على هذا النمط اللغوى المشرق

طبع الحس اللغـوى عند العربى، ومن ثم نقـول: إن الحس اللغـوى كان طبعا فى العرب، فهو فطرة فيهم ثم تنامـى بحياتهم فى بيئة لغوية نقية، عبقة بإبداعات السليقة اللغـوية التى تسامى تأثير بيانها إلى حد أن رسول الله ـ ﷺ ـ شبه تأثيـره ـ فى شدة فعاليتـه ولطفها ـ بتأثير السـحر حين قال: (وإن من البيـان لسحرا)، أى إن للبيان تأثيـرا هو فى شدته ولطفه كأنه السـحر. ومن ثم وجدنا من وهبـهم الله القدرة على تذوق الإبداع الرفيع يسمونه (السحر الحلال).

براهين على فطرية الحس اللغوى فى القوم:

وتدليلا عـلى أن الحس اللغوى كان طبـعا فى العـرب، تطالعنا فى أمهات الكتب أخبار عديدة، لعل فى واحد منها مايكفى.

جـاء إلى أميـر المؤمنين عـمـر بن الخطاب كتـاب من أبى مـوسى الأشعرى، وكـان فى صدر الكتاب: (من أبو مـوسى الأشعرى . . .)، فغضب الفـاروق من لحن كاتب (أبى موسى) وكتب إليـه : (قنع كاتبك سوطا) ـ والتقنيع: علو الرأس بالسوط.

فهل غـضب الفاروق ـ رضى الله عنه ـ إلا لأن حـسه اللغـوى قد صدم بخطأ كاتب الصحابى أبى موسى الأشعرى؟

وهل كان الفـاروق قد درس النحو وعرف أن الكاتب كـان عليه أن يكتب (من أبى موسى) لوقوع الاسم بعد (من) الجارة؟

لم يكن النحو أنئذ قد رأى النور، بل لم يكن ثمة شىء اسمه علم النحو قط ولم يتعلم الفاروق فى مدرسة أو جامعة تلك القواعد لأنها لم

تكن قد قـعدت بعـد وإنما كانت لدى الفـاروق سليقة لغـوية، استـقرت ورسخت فتشكلت منها ملكة لسانيـة، قويت وأينعت فأثمرت عنده حسا لغويا يجعله ينتفض ويثور إذا ماصدم بخطأ لغوى.

«ولو كان سيدنا عمر مثل أكثـرنا لأجاز إبقاء الأسماء الخمسة على حالة واحدة فى جميع التراكـيب على بعض اللغات، ولكن عمر ما كان يحب إلا الصحيح الذى لا شبهة فيه» (١٨).

أجل هناك لهجة عربية تلزم الأسمـاء الخمسة أو الستة الألف، وقد وردت بها شـواهد عربيـة منها ذلك المثل المـشهور (مكره أخـاك لابطل) ومنها قول الشاعر:

إن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا . . قد بلغا فى المجد غايتاها (١٩)

لكن الفاروق هنا يعتصم باللغة النموذجية، وهى اللغة المشتركة التى تعرب هذه الأسمـاء بالواو رفعا وبالألف نصبـا وبالياء جرا، ومن أجل ذلك رفض ماكـتبه كاتب أبى مـوسى، واعتبـره خطأ يستوجب صاحـبه العقاب، وما ذلك من الفاروق إلا من يقظة حسه اللغوى المطبوع.

ومما يؤكد أن الحس اللغـوى كان طبـعا فى القوم، مـا سجله (ابن جنى) فى كتابه (الخصائص) وهو كثير، ومن ذلك: ما وقع بينه وبين أبى عبدالله الشجرى وهو مايذكره (ابن جنى) إذ يقول:

«وسألتـه يوما فقلت لـه: كيف تجمع (دكـانا)؟ فقال: دكـاكين، فقلت: فسرحانا؟ قال: سراحين، قلت: فقرطافا؟ قال: قراطين، قلت: فعثمان؟ قال: عثمانون. فقلت له : هلا قلت أيضا: عثامين؟ قال: أيش عثامين أرأيت إنسانا يتكلم بماليس من لغته، والله لا أقولها أبدا»(٢٢).

إن هذا الأعرابى لم يكن قـد وقف على المعايير التى قعـدها علماء العربية ولم يدرس نحواً ولا صرفًا، ولكن حـسه المطبوع عليه هو منطلقه فيما يقبل وفيما يرفض.

لقد كان الحس اللغـوى عند القوم فطرة فطرهم الله عليهـا، وطبعا صاغهم الحكـيم على ملامحه، وليس ذلك تنفـجا ولا مبالغـة، كما أنه ليس سحرا بالعربية وحكمتها العبقرية بل هو واقع يجسده ماجاء عنهم.

فلقد كـانوا يتأملون مواقع الكلام، ويعـطون الكلام فى كل موضع حقـه وحصتـه من الإعراب عن مـيزة، وعلى بصيـرة، فلم يكن الكلام عندهم استـرسالا ولا ترجيمـا ولو كان كذلك لكثـر اختلافه وانتـشرت جهاته ولم تنتقد مقاييسه(٢١).

ومما يدلل على ذلك ماحدث بين (ابن جنى) و(محـمد بن العساف العقيلى) وهو ما أورده (ابن جنى) فقال: «وسألت يوما أبا عبدالله محمد بن العسـاف العقيلى الجـوثى، التميـمى ـ تميم جوثة ـ فـقلت له: كيف تقول: ضربت أخـوك؟ فقال: أقول : ضربت أخـاك، فأدرته على الرفع فأبى وقـال: لا أقول: أخوك أبدا قلت: فكيف تقول: ضـربنى أخوك، فرفـع، فقلت: ألست زعـمت أنك لا تقول: أخـوك أبدا؟ فقـال: أيش هذا! اختلفت جهتا الكلام»(٢٢).

لقد كـان حسهم اللغـوى رائدهم فى الأداء اللغوى، فـجنحوا عن الثقيل لنبو الحس عنه وكان الخفيف مأما لهم يتوردونه فى كلامهم، ومن ذلك «استثـقالهم الحركة التى هى أقل من الحرف، حـتى أفضوا فى ذلك

إلى أن أضعفوها، واختلسوها ثم تجاوزوا ذلك إلى أن انتهكوا حرمتها، فحذفوها، ثم ميلوا بين الحركات فأنحوا على الضمة والكسرة؛ لثقلهما، وأجموا الفتحة فى غالب الأمر لحفتها فهل هذا إلا لقوة نظرهم، ولطف استشفافهم وتصفحهم»(٢٣).

لقد التمس العربى الخفة، وسما عن الثقل بمهارة فائقة، بحسه اللغوى المطبوع وبالتساند إلى السليقة الفطرية، والنجار العربى النقى.

ويسوق (ابن جنى) ما يؤكد ذلك فيقول: «وأخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القرميسينى عن أبى بكر محمد بن هارون الروياني، عن أبى حاتم سهل بن محمد السجستانى فى كتابه الكبير فى القراءات قال: قرأ علىً أعرابى بالحرم:

(طيبى لهم وحسن مآب) فقلت: (طوبى) فقال: (طيبى)، فأعدت فقلت: (طوبى) فقال: (طيبى) فلما طال علىً قلت: (طوطو) قال: (طى طى) (٢٤).

وفى لماحية فطنة يعلق (ابن جنى) على ذلك فيقول: «أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيا كزا، لا دمثا ولا طيعا، كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء، فلم يؤثر فيه التلقين، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين، وماظنك به إذا خلى مع سومه وتساند إلى سليقته ونجرة»(٢٥).

وقد بحثت فى (المحتسب) فلم أجد (ابن جنى) قد عرض لما قرأ به هذا الأعرابى(٢٦) لكن نسبت فى (معجم القراءات) لبكرة الأعرابى، وقد

نقل مولفا هذا المعجم تلك النسبة عن (أبى حيان) فى (البحر المحيط) كما نسبت لمكوزة الأعرابى عن تفسير الفخر الرازى وعن تفسير (الكشاف) للعلامة الزمخشرى(٢٧).

والشاهد أن الأعرابى ابن سليقته وملكته اللسانية، ينبعث فى أدائه اللغوى منهما، ويعتصم بلهجة بيئته اللغوية فلا يؤثر فيه التلقين، كما يهتدى بحسه اللغوى المطبوع إلى التماس الخفة، بحيث لايحيد به عن هدية ذلك هز ولاتمرين. بيد أننا نؤمن بأن القراءة سنة متبعة، ليس يجوز فيها استمساك بلهجة معينة، ولاميل عن جادة الوارد ولو لأى سبب، ولذلك موضع فى بحث مستقل بإذن الله.

وفى تقرير أن الحس اللغوى كان طبعا فطر عليه القوم، وفطرة صبغوا عليها من عند الله ـ سبحانه ـ تحقيقا لمعالم الحكمة والعبقرية فى هذه اللغة المصطفاة أزلا وعاء للذكر الحكيم، المعجزة الخالدة للمصطفى العربى الأمى (محمد) ـ ﷺ ـ يبين (ابن جنى) كيف أن العرب مايزوا بين الصوائت القصار بحسهم فقط وفطرتهم اللغوية فحسب، فصرنا حين نتفرس لغتهم «لانجد فى الحروف المنفردة ذوات المعانى ماجاء مضموما هربا من ثقل الضمة»(٢٨).

وكأنى بابن جني قد استشعر بحسه هو أنه ربما كان هناك فى قابل الأيام من سينظر إلى كلامه نظرة استخفاف أو استنكار للطف حس القوم ورقة استشفافهم وفقاهة نفوسهم ونصوع فكرهم، فراح يسجل هذا الذى استشعره ويرد عليه فى قدرة علمية فائقة، وذلك قوله: «فإن قلت: ومن

أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفته وعنيت بأحواله وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامى الذى نسبتـه إليها، وزعمته مرادًا لها؟ وما أنكـرت أن يكون القوم أجـفى طباعـا وأيبس طينا من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق الذى لايصح لذى الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحاؤه، بل أن تشرح له أعضاؤه؟

قيل له: هيـهات! ما أبعدك عن تـصور أحوالهم، وبعد أغـراضهم ولطف أسرارهم، حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم، وخففوا عن ألسنتهم بـأن اختلسوا الحـركات اختـلاسًا، وأخفـوها، فلم يمكنوها فى أماكن كـثيرة، ولم يشبـعوها. ألا ترى إلى قراءة أبى عمـرو: (مالك لا تأمننا على يوسف) مختلسا، لامحققا، وكذلك قوله ـ عز وجل ـ (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) مخفى لا مـستوفى، وكذلك قوله ـ عز وجل ـ (فتوبوا إلى بارئكم) مختلسا غير ممكن كسر الهمزة»(٢٩).

هكذا يمضى (ابن جنى) من خلال قدرة فائقة فى لمس حكمة القوم واستشعـار وميض حسهم اللغوى، فيفلسف للعـربية وأحكامها فى فطنة ولماحية.

وفى تجلية للأعواز البعيدة للحس اللغوى عند القوم، وتبيان أنه كان طبعـا فيهم، لم يكـتسبـوه بتعلم أو تتلمذ، وإنما هو بـذرة فطرية غذاها نشاط لغوى سليم فى بيئة لغوية نقية، يبين لنا (ابن جنى) كيف أن القوم قد استشعـروا صفات الصوامت والكيفيات الصوتيـة التى تصاحب نطقها فيـقول: «ألا ترى أن أعرابيـا بايع أن يشرب علبة لبن ولايتـنحنح، فلما

شرب بعـضها كظه الأمر فـقال: كبش أملح. فقـيل له: ماهذا تنحنحت فقـال: من تنحنح فلا أفلح. أفلا تراه كـيف استعـان لنفسه ببحـة الحاء واستروح إلى مسكة النفس بها، وعللها بالصويت اللاحق لها فى الوقف ونحن مع هذا نعلم أن الأعرابى لايعلم أن فى الكلام شيئا يقال له حاء، فضلا عن أن يعلم أنهـا من الحروف المهموسة، وأن الصوت يلحـقها فى حال سكونها والوقف عليهـا، مالا يلحقها فى حال حركتـها أو إدراجها فى حال سكونها، فى نحو بحـر، ودحر؛ إلا أنه وإن لم يحس شيئا من هذه الأوصاف صنعة ولا علما، فإنه يجدها طبعا ووهما»(٣٠).

ثم يقـفى (ابن جنى) على ذلك بـالتأكـيـد على مـايراه من الحس اللغوى المطبوع فطرة، ذلك الذى تمتع به فرسان لغة يعرب ولسان التنزيل فيقول:

«وإنما مكنت القـول فى هذا الموضع ليـقوى فـى نفسك قـوة حس هؤلاء القوم، وأنهم قـد يلاحظون بالمنة والطباع مـالا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع، فتأمله؛ فإن الحاجة إلى مثله ظاهرة»(٣٠).

إنه لئن كـانت فى الطبيـعة التى كـانت تحيط بالقـوم شدة وقـسوة وصلابة وجسـاءة، ثم إنه لئن كانت تلك الحياة قـد انعكست على القوم تبـذلا وبذاذة ظواهر، وخـشونة وجـفـاء وجفـوة ـ إننا لنجـدهم ألطف مايكون وأرق مـايكون ـ فى جانب آخر من جـوانب الصورة التى ترسم حياتهم.

لقد مدحـوا بالسباطة والرشاقة، وذموا بضـدها من الغلظة والغباوة وهذا ـ فى نظر (ابن جنى) ونحن معه ـ دليل على لطفهم ورقتهم.

ومما استشهد به (ابن جنى) لذلك:

فتى قد قد السيف لامتآزف ... ولا رهل لباته وبآدله

وقول جميل:

وقد رابنى من جعفر أن جعفرا ... يبث هوى ليلى ويشكو هوى جمل

فلو كنت عذرى الصبابة لم تكن ... بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

وقول عمر:

قليلا على ظهر المطية ظله ... سوى مانفى عنه الرداء المحبر

فواضح ذم القوم بالترهل وكثرة الأكل المؤدية لضخامة الحجم، ومدحهم بالسباطة والرشاقة.

مما يعده (ابن جنى) دليلا على رقة القوم ولطف حسهم.

وأخيرا يسوق (أبو الفتح) دليلا عجيبا على لطف الحس عند القوم فى عالم الأمور المحسوسة بالحواس الظاهرة، وكأنه بذلك يؤكد بقوة مايلح على تقريره للقوم من لطف الحس الوجدانى فيقول: «وحدثنى أبو الحسن على بن عمرو، عقيب منصرفه من (مصر) هاربا متعسفا فقال: أذمَّ لنا علام ـ أى أخذ له الذمة والأمان ـ أحسبه من طىء، من بادية الشام، وكان نجيبا متيقظا يكنى أبا الحسين، ويخاطب بالأمير، فبعدنا عن الماء فى بعض الوقت، فأضر ذلك بنا، قال: فقال لنا ذلك الغلام: على رسلكم؛ فإنى أشم رائحة الماء. فأوقفنا بحيث كنا، وأجرى فرسه،

فتشوف ههنا مستشفا، ثم عدل عن ذلك الموضع إلى آخر مستروحا للماء، ففعل ذلك دفعات، ثم غاب عنا شيئا وعاد إلينا فقال: النجاة والغنيمة، سيروا على اسم الله ـ تعالى ـ فسرنا معه قدرا من الأرض صالحا، فأشرف بنا على بئر، فاستقينا وأورينا»(٣١).

ومن المعروف أن من خواص الماء أنه جوهر سيال رقيق لالون له ولاريح، فأن تصل نافذية حاسة الشم عند العربى إلى حد أنه يجد ريحا للماء، فذلك لطف الحس فى ميدان المحسوسات.

وعلامتنا (أبو الفتح) يسوق ذلك تعجيبا من لطف حس القوم العام سواء فى ذلك مايتم استشعاره بالحواس الظاهرة كالماء، ومايتم استشعاره بالحس الوجدانى الفطرى، وذلك كحكمة العربية ومضيها على سنن عبقرى مستقيم.

وإذا كان استشعار العربى وجود الماء من خلال رائحته أمرا قد ساقه (ابن جنى) تدليلا على لطف حس القوم، فى ميدان مايتم استشعاره بالحواس الخمس الظاهرة، فإن فى تراثنا كثيرا مما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بحس لغوى مطبوع غرزى فيهم وفطرة، بصورة تدعو إلى العجب العاجب، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما مضى، تأكيدا لهذا الحس.

إلا أن ماذكرناه كله مما نجد له أمثلة كثيرة تفوق الحصر فى (الخصائص) وغيره من كتب التراث النفيس إنما وقع من أعراب كبار قد انضاف إلى بذرة الحس اللغوى فيهم من خلال الفطرة، طاقات تنمية لذلك الحس الفطرى من خلال النشاط اللغوى فى تلك الأجواء النقية التى تمتعت بها بيئاتهم.

أما حـين تطالعنا الطفولة البـريئة فى البيـئة العربيـة بملامح للحس اللغوى وحـين تشرق عليـنا ومضات للحـس اللغوى من آفاق الـطفولة العربية، فإن هذا مايشيرا إلى فطرية ذلك الحس بصورة أبرز وآكد.

لقد ذاعت فصاحة العرب ذيوع الشمس، تلك الفصاحة «التى تصل إلى حد الغريزة فيهم، حتى أطفالهم، من ذلك ماحكى أن معلما للقرآن من الداخلين فى الـعربيـة وفى الإسـلام، كـان يلقن الأطفـال فى أولى مراحل التعليم آيات القرآن؛ ليرددوها بعده بغـية حفظها، فقال المدرس: (تبت يدا) ـ كأول مقطع من سورة (المسد) يريد من الأطفال ترديدها بعده فكان بعـض الأطفـال يردون: (تـبت يدان) بالنون؛ ذلك لأن المـثنى فى لغتهم لفصيحة التى درجوا عليها ـ لاتحذف منه النون إلا مع إضافته ـ أما إذا لم يضف فتظهـر فيه نون التـثنية والجمع ـ ولما أكـمل المدرس المضاف إليه وقـال لهم: (تبت يدا أبى لهب) رددوا قوله كمـا هو. وإن مثل هذا كثير»(٣٢).

هكذا هدت الفطرة اللغـوية أطفـالا برآء، إلى أن (تبت يدا) هكذا غير مـستقيم، وأنه لكى تتـحقق الاستقامـة فلابد من النون (تبت يدان) فلما وصل المعـلم المضاف إليه (أبى لهب) بالمضـاف (يدا) نطق التلامـيذ بدون النون فقالوا (تبت يدا أبى لهب).

فالتـلاميـذ الصغـار لم يدرسوا المثنى وأحكام نـونه إثباتا وحـذفا، ولكنهم بذلك السلوك اللغـوى، قد انبعثـوا فى هدى حس لغوى فطرى عجيب.

ز هو العربى بالكلام وتجسده واقعا بجهود العلماء:

قيل فى العرب: إنهم أمة مُنعوا الطعام وأعطوا الكلام،(٣٣) وهذه الكلمة تتمثل مصداقيتها فى أنها تجسد لنا حياة العرب الأولين على الجانبين الاقتصادى والاجتماعى.

أما اقتصاديا فقد عاشوا حياة جافية كزة قاسية، لاتعرف الخصوبة ولا الرفاهية، مثل أولئك الذين عاصروهم من قطان بيئات غير جزيرة العرب.

وأما بالنظر إلى اللغة فقد كانت هذه الخشونة والجفاء اللذان كان يظهر فيهما الأعرابى، وعيشه محروما من الترف وليونة الجلد ـ كما أطلقوا عليه ـ أساسًا للثقة فى سلامة سليقته، ونصوع فطرته، ورسوخ ملكته اللسانية، وإشراق حسه اللغوى، وذلك لأن لسانه مصون بوساطة اقتصار سمعه على بيئة نقية لغويا.

وهذا الكلام الذى منحه الله لهؤلاء العرب، كان شيئا نفيسا عندهم فقد عدوه الوسيلة للحياة، والمنبع للزهو والمجد والفخار، كما كان عندهم الصائن للأعراض المنوه بالشرف، وكذلك كان سلاحا له فعالياته التى لاتقهر فى مشتجراتهم ومعاركهم.

إنه لم يكن للعربى شىء فى تلكم الحياة الكزة القاسية الجافية، فى تلكم البيئة العارية عن الحضارة سوى العرض والفخر والسيادة والشرف، وتلك ـ لعمرى ـ هى الأسس المعنوية الرواسى للحياة.

والكلام كان المرآة الصادقة الصافية الصقلية التى تعكس تلك

الأسس وتباهى بها فى الخافقين، ومن هنا كان زهو العربى غير المتناهى بنعمة الكلام والبيان

لقد كانت الفصاحة أعظم المفاخر لدى العربى، ومعلما رائدا بارزا من معالم نبوغه وشموخه، ومن ثم كانت معجزة أمير المرسلين (محمد) - ﷺ - هى (القرآن الكريم)، الذى تحدى الله به العرب، فوقف أمام بديع نظمه أساطين الفصاحة واجمين وخر لرفيع إعجازه فحول البلاغة ساجدين.

ومن أجل ذلك كانت عناية العرب بالكلام، لأنه مبعث زهوهم وركيزة مجدهم وفخارهم، وسجل حياتهم ونشاطهم، وأساس سيادتهم وشرفهم.

لكن استشعار العربى للزهو بالكلام فى (طاووسية) فريدة لم يتحقق معشارها لناطق بلسان غير اللسان العربى - هذا الاستشعار للزهو بالكلام والتقدير لجمال البيان ورشاقته ظل مجرد شعور يهش له وجدان العربى حتى تجسد واقعا ينبض بالحياة حين تناوله العلماء فحولوه جهدا مضنيا، وفكرا رائعا، وزادوه إعزازا وتقديسا يفوق استشعار العربى للزهو والطاووسية به - كما صرحوا بذلك كثيرا -.

ومن هنا كان احتفاء العلماء بالأعراب من أجل اللغة والفصاحة، فكانوا يقدرونهم حق القدر، ويبالغون فى إكرامهم؛ حتى يفيدوا منهم لغويا، ومن هؤلاء الأعراب المشهورين بالفصاحة: أبو خيرة العدوى، والخثعمى وأبو الدقيش - وكان من أفصح العرب وأبينهم - وأبو مهدية الأعرابى وأبو المنتجع، وأبو طفيلة، وأبو حياة بن لقيط، وأبو البيداء

الرياحى، ومحمد بن عبدالملك الفقعسى، وعبدالله بن عمرو بن أبى صبح، وأبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابى اللغوى، صاحب النوادر، وأبوالجاموس ثور بن يزيد، وأبو سوار الغنوى، وأبو ضمضم الكلابى، وأبو ثؤابة الأسدى وأبو زياد الكلابى، وأبو عرار العجلى، وعمرو بن عامر البهدلى، الذى أخذ عنه الأصمعى، وأبو شبل العقيلى، وأبو ثرواد العكلى وأبو فقعس، وأبو دثار، وأبو الجراح، وهؤلاء الأربعة هم الذين حكموا بين سيبويه والكسائى، وأبو العميثل، وعوسجة، وأبو مسهر الأعرابى، وأبو المضرحى، والحرمازى، وأبو الهيثم، وأبو المجيب الربعى، وأبو صاعد الكلابى، وأبو الصعق العدوى والمفضل العنبرى، ويزيد بن كثوة، وناهض بن ثومة الكلابى وأبوالسمو الطائى، وغيرهم كثير جدا كثير»(٣٤).

من ومضات الحس اللغوى فى العبارة:

ربما كان من المنهـجية هنا أن نبدأ بتلمس ومـيض الحس اللغوى فى (الحروف) بمعنى أن نعرض لأمرين.

أولهـما: ومضات الحس اللغوى فى ائتـلاف الصوامت بعضها مع بعض داخل إطار الكلمة المفردة، بحيث نعرض لما فى تراثنا من ومضات ذلك الحس، المتمـثل فيـما استنبطـه العلماء من قوانين لـغوية فى هذا، استرفادًا مما التزمته العرب فى لغتها، ومما رفضه حسها ونبا عنه.

والثـانى: ومضات الحس اللغـوى فى التشكيل المقطعى للقوالب والأبنية التى سمحت سليقة العربى بأن (تتقولب) فيها الصوامت متمازجة بالصوائت، والقـواعد التى استنبطهـا الصرفيـون من خلال ما استـعمله العرب وما لم يستعملوه.

هذا ماتتقاضاناه المنهجيـة فعلا. لكننا لن نتعرض له، لا خروجا عن المنهجية ـ فذلك مسـلك نرفضه فى مديان البحث العلمى ـ وإنما لأن من الباحثين من سبقنا إليه، فدرسه دراسة واسعة عميقة مستوعبة،

ويعد من أعدق ماتعمر به المكتبة العربية فى هذا كتاب (أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى) الذى دبجه أستـاذنا الدكتور. عبدالغفار حامد هلال، فقد استوعب ذينك الجانبين استـيعابا ضافيا وعميقا، نرى ـ معه ـ تعرضنا لهما من التكرار.

وهذا هو السـبب فى قصـرنا تلمس ومـضات الحس اللغـوى عند العرب على العبارة والأسلوب فى دراستنا هذه.

وغنى عن البيان أن نوضح ـ هنا ـ أننا لسنا مطالبين باستقصاء كامل لما فى تراثنا من ذلك إذ تضيق عن استيعابه أسفار ضخمة، لكن يكفينا من الأمثلة مايجسد ذلك واقعا نابضا بالحياة.

ومضات الحس اللغوى فى العبارة والأسلوب نثار فى ميراثنا اللغوى وغيره، منتشرة عديدة لأن الحس اللغوى أساس (محورى) فى بناء لغتنا العربية، ثم هو عنصر فعال فى تشكيل الذائفة اللغوية لرفيع الكلام وفن القول، وفوق ذلك فهو عامل مهم له فعالياته القوية الوثابة فى اكتناه رفيع النظم القرآنى، وترشف رحائق إعجازه القاهر الحكيم.

حين نستشرف وميض الحس اللغوى فى آفاق العبارة فى لغتنا العربية، فإننا نجده واضحا جليا فى كتب التراث، بصورة تستلفت الأنظار، وتستثير الإعجاب.

ولن يتأتى لهذه الدراسة استقصاء ذلك؛ لأن دورها ينحصر فى التنبيه لذلك الحس، ومحاولة تشخيصه، وإدراك انعكاسه فى كيان لغتنا العربية، وتملى إشعاعه فى آفاقها، وتحسس سريانه توازنا وانسجاما فى سوسها.

لقد استشعر الأعرابى (ابن البيئة اللغوية النقية الطاهرة من لوثة العجمة ومن أوضارها) ـ استشعر القواعد النحوية الضابطة، والقوانين اللغوية الحاكمة من دون دراسة لها، بل قبل أن تكون ثمة قواعد أو أحكام.

ومن ثم كان الخطأ يصدم حسه، فكان يفزع منه كالمذعور، يلتمس الصواب ويتحسسه فى شغف وحدب عليه.

ولعلنا هنا لو استشهدنا بما أنف منه سمع المصطفى ـ ﷺ ـ من لحن رجل بحضرته، وما كان منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نصيحة مخلصة حرى وجهها لمن هم حوله بقوله: «أرشدوا أخاكم فقد ضل» (٣٥) ـ أقول: لعلنا لو أننا استشهدنا بذلك على تأذى الرسول من جرثومة اللحن التى تصدم الحس ـ لقيل لنا ذلك هو الرسول الموحى إليه، الذى أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا وأدبه ربه فأحسن تأديبه، وذلك حق وهو من العقيدة بمكان.

لكن بم يمكن تفسير قول الصديق ـ رضى الله عنه ـ : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فالحن»(٣٥)

وهل ذلك من الصديق ـ رضى الله عنه ـ سوى دعوة إلى الحفاظ على مقتضيات الحس اللغوى من كلام عربى ماض على سنن مستقيم؟

وهل كتاب الفاروق ـ رضى الله عنه ـ لأبى موسى الأشعرى الذى قال له فيه (قنع كاتبك سوطا) قد انبعث إلا من أن خطأ كاتب أبى موسى قد صدم الحس اللغوى الرهيف الذى فطر الله عليه الفاروق وأبناء جزيرته، الذين هم ـ بحق فوارس الكلمة الأماثل.

ذكر (الزبيدى) فى (طبقات النحويين واللغويين) أنه يروى أن أبا الأسود الدؤلى هو الذى وضع النحو، قيل إن ابنته قالت له فى يوم قائظ شديد الحر: (ما أشدُّ الحر) ـ بضم الدال ـ تريد التعجب، فقال أبوها: (القيظ وهو ما نحن فيه يابنية) . ظنامنه أنه استفهام . فتحيرت وظهر لها خطؤها، فعرف أنها أرادت التعجب، فقال لها: بابنية قولى: (ما أشدَّ الحرَّ) (٣٦).

فهل حـاول أبو الأسود مع ابنته سـوى أنه وجهـها للسنن المستـقيم الذى يتجاوب مع هتافات الحس اللغوى؟

إن ابنتـه كانت فى زمن بدأت فـيه أفـاعى اللحن تحرك أذنابهـا من حول الفـصحى، وبدأت السليـقة تكتنف بضبـابيات الانحـراف اللغوى وتضعف عن التزام جادة الصواب.

وقد مثل ذلك لأبى الأسود صدما وتصـديعا فى حسه اللغوى فنفر منه وأهاب بابنته أن تمضى على سننه بالتعبير السليم.

وهذا الذى ذكرناه وغـيره مما تذكره المراجع فى تـاريخ بداية العمل النحـوى حين ننظر إليـه من الجانب الآخـر نجده شـاهدا بتحـقق الحس اللغوى فى القـوم الذين كانت تنفـرهم لحون اللاحنين، ولهذا ذكـرنا ما ذكرناه منه هنا.

ومما يدعم إشراق الحـس فى القوم ماذكـره الإمام (الجـرجانى) فى كتابه الفذ (دلائل الإعجاز) من أن أعـرابيا سمع مؤذنا ذات مرة يقول فى الآذان: (أشهد أن محمدًا رسول الله) بنصب (رسول) لابرفعها.

فعلق الأعرابى لتوه قـائلا للمؤذن: (صنع ماذا)، إنكارا منه لما فعله المؤذن من نصب كلمة (رسول)(٣٧).

فالأعرابى أنكر نصب الكلمة دون أن يعرف أن العامل (إن) ينصب الاسم ويرفع الخـبر، لكنه أنـكر لأن حسـه استـشعـر أنه بنصب كلمـة (رسول) يظل المستمع متشوفا للفائدة التى يتضمنها ما سماه النحاة (الخبر) بعد تقعيد النحو.

من ومضات الحس اللغوى فى الأسلوب:

إذا كانت الأصوات هى الوحـدات الأولى فى تكوين اللغة، أو هى (الجزيئات البسيطة) فى (التـحليل الذرى) للغة، أية لغة، فإن القوالب أو الصيغ أو الأبنيـة هى الأوعية التى تتـمازج فيهـا تلك الأصوات؛ إذ كل قالب صيغى هو (بوتقة) تتمازج فيها صوامت وصوائت لتشكيل الكلمة، التى هى الوحدة اللغـوية الأولى فى اللغة، ثم من خلال تعانـق أكثر من وحدة لغوية (كلمة) وفق معايير معـينة يرسيها علم النحو تتحقق الوحدة التركـيبية الأولـى فى اللغة (الجملة)، وبتـضام أكثر من وحـدة تركيبـية (جـملة) يتشكـل الأسلوب، وفق قواعـد ومـعاييـر أرسـاها المشتـغلون باستبطان الأساليب وفقه دلالاتها المتنوعة.

والتشكيل الأسلوبى يـعنى ويهتم بالصورة الأسلوبيـة منذ ولادتها، أى منذ مرحلة اختيار الوحـدة اللغوية من حيث ذرات تكوينها الصوتى، ومن حيث شكل البوتـقة التى قد تمازجت فيهـا الأصوات، ثم من حيث النمط الذى برزت فيه الوحـدة التركيبية (الجـملة) ثم من حيث وفاء كل ذلك بالدلالة المتطلبة المتـغياة من الكلام، وأخيرا مـن حيث الإطار العام الذى يجمع العديد من الوحـدات التركيبية (الجـمل)، وذلك هو مانعنيه حين نطلق مصطلح (التشكيل الأسلوبى).

وإذا كان الحسن اللغوى أسـاسا له موقعيتـه المكينة فى ابتناه العبارة اللغوية فى لغتنا العـربية ـ على ماسبق التمـثيل له ـ فإن دور ذلك الحس فى التشكيل الأسلوبى أكثر بروزا وأهمية.

ذلك بأن المتكلم الحاذق، الذى يمتلك ناصية البيان، هو ذلك القادر

- بذكاء وفطنة وألمعية - على تجسيد مابداخله من خطرات وجدانية، وما يأتلق فى عقله من خطرات فكرية، فى وجدان المخاطب وعقله، كما يستشعره ويعانيه.

فالأسلوب الراقى الرفيع هو ذلك الذى ينفث فى المخاطب من أنفاس صاحبه ويشى لقارئه بهواجس مبدعه، ويزرع فى عقل المخاطب أفكار قائله، ويرسم فى واعية المخاطب أطياف الخواطر التى تعتمل فى فكر صاحبه، ويثير فى وجدان المخاطب ذات العواطف والمشاعر التى تضطرم فى كيان منشئه فى إطار الوجدان والشعور.

ولكى يتحقق ذلك لابد من أن يراعى المبدع الأصول والمعايير التى يجب اتباعها فى جميع النظم اللغوية الفرعية التى يتشكل منها النظام اللغوى العام للغة.

ثم مع ذلك لابد مراعاة العديد من الضوابط التى تعد مرجعية لها أهميتها فى التشكيل الأسلوبى وفق الأطر والأنساق الأسلوبية العديدة والمتنوعة.

ومن ثم يمكن أن يعنى المبدع بمعايير النظم الفرعية الأربعة، الصوتى والصرفى والنحوى، والدلالى، عناية تامة، ومع ذلك ترى نتاجه هشا فجا، متهافتا، باهتا، فاترا، خلوا من التأثير فى المخاطب، وذلك إذا هو لم يحافظ على التوازى والتسامت والتساوق فى عنايته بالنظم الأربعة المذكورة، وعنايته فى الوقت نفسه بمستوى التشكيل الأسلوبى الذى تتطلبه وتتغياه دواعى السياق والمقام وحال المخاطب وما إلى ذلك من الدواعى.

ومن ثم فإننا إذا كنا قـد عرضنا ألوانا من ومـيض الحس الغوى فى ابتناء العبارة فى لغتنا العربية، فبرز الحس فيـها واضحا، فيما سبق ـ فإن من تتمة خطوط الصورة التى ترتسم بهـا فكرة موضوع هذه الدراسة، أن نعرض بعض الومضـات التى تشى بالحس اللغوى على مسـتوى التشكيل الأسلوى.

من وميض الحس اللغـوى على مستوى التشكيل الأسـلوبى ما قاله (ابن هرمة) الشاعر لذلك الرجل الذى أنشده بيته المشهور:

بالله ربك إن دخلت فقل لها: ـ هذا ابن هرمة (قائما) بالباب)

فـقال (ابـن هرمة) للـرجل: ماكـذا قلت، أكنت أتصـدق؟! قـال الرجل: فماذا؟ قال (ابن هرمة): واقفًا.

ثم أضاف (ابن هرمة) للرجل: (ليـتك علمت مابين هذين من قدر اللفظ والمعنى).

فالنظرة المسطحة العجلى قد تتوهم أنه لافرق فى التشكيل الأسلوبى بين (قائما) و (واقـفا)، على نحو مافهم الـرجل الذى أنشد (ابن هرمة) بيته ذلك.

لكن نظرة واعـية تتـرشف وحى الكلمات، وتتـسمع هـمساتـها، وتستشعر نبضاتها وتتفرس وميضها، وتتملى إشعاعها ـ هذه النظرة تدرك أن (واقفا) لاتتعادل دلاليا مـع (قائما) ولاتصلح أية منهما فى أى تشكيل أسلوبى، هكذا كـيـفمـا اتفق ولكن لكل تـشكيل مايلائـمه من خـلال متطلبات التشكيل ودواعيه.

ومن ثم نفـر الحس اللغـوى لدى (ابن هرمـة) من كلمـة (قائمـا) وأرشد منشـده إلى مايهمش الحس إليه من كلمـة (واقفا)، معلـلا رفضه تعليلا مـقنعا، مذيلا على ذلك بأن هناك فرقـا بين الكلمتين يعـد إغفاله صدمًا للحس اللغوى غير مقبول.

وقد تستمد هذه الروية وكادة ووثاقة أكثر مما أصله الإمام عبدالقاهر الجـرجانى من أنك ترى الكلمـة تروقك وتؤنسك فى مـوضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر(٣٨).

ويعد من العمد فى مستوى التشكيل الأسلوبى، وتساوقه مع الحس اللغوى المرهف لفـرسان الكلم فى لغتنا الشاعـرة، ماعناه إمام البـلاغيين (عبـدالقاهر) بنظرية (النظم) التى عـاش لها ومن أجلهـا، وتولاها حتى بلغت على يديه إناها.

ويتبين لنا وثاقة الارتبـاط بين التشكيل الأسلوبى من جانب، وبين (النظم) عند الإمام حين نوازى بما أسلفناه قوله ـ رحمه الله عن النظم:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كـلامك الوضع الذى يقـتضـيه علم النحو وتعـمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجـه التى نهجت، فلا تزيغ عنهـا، وتحفظ الرسـوم التى رسمت لك فلاتخـل بشىء منها، وذلك أنا لانعلم شيئا يبتغـيه الناظم فى نظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفـروقه، فيـنظر فى الخبـر إلى الوجوه التى تراها فى قـولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، ومنطلـق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى نراها فى قـولك: إن تخرج أخـرج، وإن خرجت خـرجت، وإن تخرج فـأنا

خارج وأنا خارج إن خـرجت، وأنا إن خرجت خارج . . فتـعرف لكل من ذلك موضعه وتجئ به حيث ينبغى له، وتنظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى، فتضع كلا من ذلك فى خاص معناه»(٣٩).

وواضح من كـلام الإمام أنه يشـير إلى تفـرس الفروق بين الجـمل (الوحدات التركـيبية) من خلال النظامـين النحوى والدلالى، مع تساوق دور ذلك فى التشكيل الأسلوبى فى الوقت نفسه.

أما تساوق النظام الصرفى، والانتقاء المعـجمى مع مستوى التشكيل الأسلوى، فلم يلتفت إليهما فى إشارته تلك.

وقد نجد الالتفات إليهما مع مستوى التشكيل الأسلوبى فيما يلى:

أنشد حسان بن ثابت فى عكاظ:

"لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى . . وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق . . فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء:

ضعفت افتخارك، وأبرزته فى ثمانية مواضع! قال: وكيف؟ قالت: قلت: (لنا الجفنات)، فقللت العدد، ولو قلت : (الجفان) لكان أكثر، وقلت (الغر) والغـرة البياض فى الجبـهة، ولو قلت (البيض) لكان أكـثر اتسـاعـا، وقلت (يلـمـعن) واللمع شىء يأتى بعـد الـشىء، ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر؛ لأن الإشـراق أدوم من اللمعان، وقلت (بالضحى) ولو قلت (بالعـشـيـة) لكان أبلغ فى المديح؛ لأن الضـيف بالليل أكـثـر

طروقا، وقلت (أسبافنا) والأسياف دون العشرة، ولو قلت (سيوفنا) كان أكثر، وقلت (أسيافنا) والأسياف دون العشر، ولو قلت (سيوفنا) كان أكثر، وقلت (يقطرن) فدلت على قلة القتل ولو قلت (يجرين) لكان أكثر؛ لانصباب الدم، وقلت (دما) والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك»(٤٠).

على هذا النحو اهتدت (الخنساء) بحسها اللغوى الفطرى إلى نقاط الفتور فيما سمعت كما لمست ـ فى هدى وهج الحس اللغوى ـ ما كان يقتضيه التشكيل الأسلوبى الرفيع، وواجهت به الشاعر المفلق (حسان بن ثابت).

وعلى المستوى نفسه، لقى هذا النقد اللغوى قبولا ومصداقية لدى (حسان) من خلال حسه اللغوى كذلك، فلم تذكر الرواية أنه ناهض نقدات (الخنساء) أورد عليها.

وغنى عن البيان أنه إذا كان كلام الإماء (عبدالقاهر) فى النظم ـ على ماسبق ـ قد التفت إلى المستويين النحوى والدلالى، فإن كلام الخنساء) قد أم المستوى الصرفى، ولحظ أهمية الانتقاء اللغوى من بين خضم مفردات اللغة، كما لحظ المستوى الدلالى.

وهما معًا (عبدالقاهر) و (الخنساء) يجريان فى مضمار التشكيل الأسلوبى بغية الوصول إلى صورة أسلوبية، تنفث أنفاس صاحبها فى أحناء المخاطبين، وتشى بخفايا هواجس نفسه لبصائر حسهم اللغوى، وتدقق فى وصف خواطره لتستقر لديهم أحسن استقرار وأمكنه.

وأداة هذا الاستشـعار كانت تتمـثل لديهم فى حس لغوى رهيف، تحدثنا بصـدده كثيرا وسبـب فقد هذا الاستشـعار يتمثل فـى فقدان ذلك الحس اللغوى الذى عكفت هذه الدراسة عليه، يقول الإمام (عبدالقاهر):

«واعلم أنه لايصـادف القـول فى هذا الباب مـوقـعا من السـامع، ولايجد لديه قـبولا حـتى يكون من أهل (الذوق والمعرفـة) وحتى يكون (ممن تحـدثه نفسـه بأن لما يومئ إليـه من الحـسن واللطف أصلا) وحـتى يختلف الحال عليـه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحيـة تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبهته لموضع[٤١] المزية انتبه»

فـالحس اللغوى هو المعـول عليـه فى استـبصـار المزايا فى الكلام، وترشف رحائق الإبداع فيه حيث «لايجهل المزية فيه إلا عديم الحس ميت النفس وإلا من لايكلم لأنه من مـبادئ المعرفـة التى من عدمـها لم يكن للكلام معه[٤٢] معنى».

ولعلنا من خـلال هذه الدراسة، التى عكفت على اسـتبـصار هذه الومـضات من الحس الـلغوى، نكون قـد أبرزنا دور الحس اللغـوى فى تجسيـد حكمة هذه اللغة ذلك الحس الذى فطر الله عليـه العرب، إعدادا أزليـا لهذه اللغـة، المصطفـاة لتكون وعاء لأتم تـنزيل من السمـاء هداية للإنسان الخليـفة فى هذا الكون ومعـجزة أبدية دائمة مادامت السـماوات والأرض، حفظا ورعاية من العلى الأعلى ـ سـبحانه ـ إذ قال: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له [٤٣] لحافظون».

الحواشى

١ ـ الخصـائص لأبى لفتح عـثمان بـن جنى ـ حققـه محـمد على النجار ـ (دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان) ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٤.

٢ ـ المرجع السابق ٣/ ٢٧٦.

٣ ـ المرجع نفسه ٣/ ٢٧٦.

٤ ـ المرجع نفسه ١/ ٥١.

٥ ـ المرجع نفسه ١/ ٥٣ ـ ٥٤.

٦ ـ الملكة اللسانية فى نظـر ابن خلدون للدكتور محمد عـيد (عالم الكتب ـ القاهرة) ١٩٧٩م. صفحة/ ٢٨ بتصرف.

٧ ـ مقدمة ابن خلدون، وهى الجـزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتـدأ أو الخبر تصـحيح وفـهرسة أبى عـبدالله السعـيد المندوه، نسـخة مصححة ومنقحة، ومدققة ومرقمـة ومفهرسة، مرفق معها خرائط وصور قيمـة (مؤسسة الكتب الثقـافية ـ بيروت/ لبنان) ـ المكتبـة التجارية/ مكة المكرمة) ـ الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. صفحة : ٢٥٨ من الجزء الثانى.

٨ ـ المرجع نفسه جـ ٢/ ٢٤٩.

٩ ـ مقدمة ابن خلدون/ جـ٢/ ٢٦٣ (مصدر سابق).

١٠ ـ المرجع السابق جـ ٢/ ٢٦٣.

١١ ـ المرجع نفسه جـ٢/ ٢٦٥.

١٢ المرجع نفسه جـ٢/ ٢٦٥، ٢٦٦.

١٣ ـ هكذا، والصحيح (أفاده).

١٤ ـ مقدمة ابن خلدون ٢/ ٢٦٦ (مرجع سبق ذكره).

١٥ ـ المرجع نفسه والجزء والصفحة نفسها، ومابين الأقواس شرح من المؤلف.

١٦ ـ كتاب التعريفات، تأليف فريد عصره ووحيد دهره الشريف على بن محمد الجرجانى (دار الكتب العلمية ـ بيروت/ لبنان) الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ صفحة : ١٠٧ بتصرف يسير.

١٧ ـ الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ـ محمد حسين ال ياسين منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) صفحة: ٣١ بتصرف.

١٨ ـ آراء فى اللغة ـ أحمد عبدالغفور عطار (الناشر: المؤسسة العربية للطباعة ـ جدة : ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م) صفحة: ٢١.

١٩ ـ اللهجات العربية نشأة وتطورا ـ لأستاذنا الدكتور . عبدالغفار حامد هلال (مطبعة الجبلاوى ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م صفحة: ٣٣٩).

٢٠ ـ الخصائص: ١/ ٢٤٢ (مرجع سبق ذكره).

٢١ ـ المرجع نفسه ١/ ٧٦ ـ ٧٧ بتصرف.

٢٢ ـ المرجع نفسه ١/ ٧٦.

٢٣ ـ المرجع نفسه ١/ ٧٧ ـ ٧٨ وانظر (أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى) لزستاذنا الدكتور عبدالغفار هلال (٢٠ ـ ٣٥) ففيه من ذلك الكثير.

٢٤ ـ المرجع نفسه ١/ ٧٥ ـ ٧٦.

٢٥ ـ المرجع نفسه ١/ ٧٦.

٢٦ ـ ينظر المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ـ تأليف أبى الفتح عثمان بن جنى، يتحقيق على النجدى ناصف، والدكتور. عبدالحليم النجار والدكتور . عبدالفتاح إسماعيل شلبى ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ الجزء الأول / ٣٥١ ـ ٣٥٨.

٢٨ ـ معجم القراءات القرآنية إعداد الدكتور. أحمد مختار عمر والدكتور عبدالعال سالم مكرم ـ الجزء الثالث/ ٢١٦ ـ مطبوعات جامعة الكويت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، وينظر تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى ـ قدم له فضيلة الشيخ خليل محيى الدين الميس مدير أزهر لبنان ومفتى البقاع/ الجزء التاسع عشر صفحة/ ٥٧ من المجلد العاشر، ويقارن بتفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ـ تأليف أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى حقق الرواية محمد الصادق قمحاوى (الطبعة الأخيرة عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م) طبع شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبى وأولاده بمصر، الجزء الثانى/ صفحة ٣٥٩ وفيها يقول جار الله: «والواو فى (طوبى) منقلبة عن ياء، لضمة ماقبلها، كموقن وموسر. وقرأ (مكوزة) الأعرابى: (طيبى لهم) فكسر الطاء؛ لتسلم الياء كما قيل :(بيض) و(معيشة)».

٢٨ ـ الخصائص : ١/ ٧١. (مرجع سبق ذكره).

٢٩ ـ المرجع نفسه: ١/ ٧٢.

٣٠ ـ المرجع نفسه: ٣/ ٢٧٦.

٣١ ـ الخصائص: ١/ ٨٠.

٣٢ ـ فقه اللغة ـ دكتور. فضل ربه السيد طمان/ ٩٤.

٣٣ ـ الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ـ تحقيق/ أحمد أمين وأحمد الزين ـ طبع القاهرة سنة ١٩٣٩م ـ الجزء الثالث/ ٦٩.

٣٤ ـ آراء فى اللغة: ٢٣، ٢٤ (مرجع سبق ذكره).

٣٥ ـ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ طنطاوى وآخرين/ ٩ وينظر : ضحى الإسلام ـ تأليف أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة التاسعة ١٩٧٩م ـ الجزء الثانى/ ٢٥٢.

٣٦ ـ طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى (القاهرة فى ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م) صفحة/ ١٤.

٣٧ ـ كتاب دلائل الإعجاز تأليف الإمام عبدالقاهر الجرجانى ـ قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر (مكتبة الخانجى بالقاهرة) صفحة/ ٤١٩.

٣٨ ـ دلائل الإعجاز / ٣٣ (مرجع سابق).

٣٩ ـ المرجع نفسه/ ٥٥.

٤٠ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعى (دار الكتاب العربى ـ بيروت / لبنان) ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ صفحة ٢٢٥ تحشية/ ٢.

٤١ ـ دلائل الإعجاز / ٢٩١ (ومابين الأقواس له مزيد أهمية فى تجلية المراد).

٤٢ ـ المرجع نفسه/ ٤٣٠.

٤٣ ـ الآية/ ٩ من سورة الحجر.